The North African Journal of Scientific Publishing (NAJSP)
مجلة شمال إفريقيا للنشر العلمي (NAJSP)
E-ISSN: 2959-4820
Volume 2, Issue 3, July – September 2024, Page No: 49-61
Website: https://najsp.com/index.php/home/index
SJIFactor 2023: 3.733 **0.63 :2023 (AIF) معامل التأثير العربي** **ISI 2023: 0.383**

الاستقلالية الفكرية في الإسلام ودورها في الارتقاء الإنساني والحضاري

د. يونس آيت وحليم فطار *
أستاذ باحث في علوم الشريعة (الفقه وأصوله)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المملكة المغربية

Intellectual independence in Islam and its role in human and civilizational advancement

Dr. FETTAR YOUNES AIT WAHLIM *
Researcher in Sharia Sciences (Jurisprudence and its Principles), Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco

*Corresponding author	fettaryounes1981@gmail.com	*المؤلف المراسل
تاريخ النشر: 2024-08-13	**تاريخ القبول:** 2024-07-26	**تاريخ الاستلام:** 2024-05-30

الملخص

يهدف هذا البحث إلى إبراز أهمية استقلالية التفكير وأدوارها في تحقيق مظاهر النمو، والتمهيد للبناء الحضاري والعمراني في المجتمعات المسلمة، مع تأصيلها من وجهة نظر شرعية، وتبيان خطورة إهمالها خصوصا لدى فئات الشباب. لأن تركها يعد أكبر عامل في سقوط الحضارات وانهيارها، محاولا استنهاض الهمم والعزائم لتوظيف كل إمكانات العقل وأدواره حتى يستطيع الشباب المسلم اليوم حمل مشعل النمو والنهوض والارتقاء في شتى مجالات الحياة، عبر التفكير الاستراتيجي والمنهجي والمتوازن بما لا يتصادم مع المبادئ الشرعية الإسلامية، ويسهم بشكل فعال في الارتقاء نحو درجات الكمال الإنساني.

الكلمات مفتاحية: العقل، استقلال التفكير، الإسلام، الارتقاء الحضاري، مهارات التفكير، الجمود، التقليد.

Abstract

This research aims to highlight the importance of independent thinking and its role in achieving aspects of growth, and paving the way for civilizational and urban construction in Muslim societies, while rooting it from a legal point of view, and showing the danger of neglecting it, especially among young people; because abandoning it is the biggest factor in the downfall and collapse of civilizations, trying to arouse the spirits and determination to employ all the potential of the mind and its roles so that today's Muslim youth can carry the torch of growth, advancement and progress in various areas of life, through strategic, systematic and balanced thinking that does not conflict with Islamic legal principles, and contributes effectively to the advancement towards the degrees of human perfection.

Keywords: Mind, Independence of Thinking, Islam, Civilizational Advancement, Thinking Skills, Stagnation, Imitation.

مقدمـــة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلقه وصفوته من رسله الذي اختاره وبالرسالة شرفه وبعد.

خلق الله الإنسان وكرمه، وبالعقل عن سائر الخلق ميزه، وبالقلم علمه، وبالفهم زينه، وبالعلم إلى درجات عُلا رفعه، فأبدع سبحانه في كل مخلوقاته وعمر كونه بالأسرار ليكون ميدانا خصبا وفضاء صالحا يوظف فيه الإنسان طاقات العقل التي وهبه بالتأمل والتفكر تارة، والتدبر والاعتبار تارة أخرى، فيزداد بذلك علما، ومن الله قربا، فلولا هبة العقل والفكر لاستحالت الحياة البشرية ولكانت إلى الحيوانية أقرب، ولولا توظيف أدوار العقل لاختفت المدنية والحضارة، وطغى بدلا عنهما قانون الغاب، لذلك يستحيل تصور إنسانية بلا عقل وفكر، كما يستحيل تصور عاقل لايمكّن العقل من أعز وظائفه وهي التفكير، فمن حرم منه حرم من النور وعاش في الظلمات، يصف الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنه قيمة العقل قائلا : **(عجبت لمن أعطاه الله شمعة فأطفأها ثم مشى في الظلام)**

فحاولت من خلال هذا المقال تسليط الضوء على خطورة الحجر على العقل إما من صاحبه أو من غيره في زمان الناس اليوم، مبرزا أهمية مبدأ الاستقلال الفكري ودوره في التنمية والرقي على كل الأصعدة، مبينا دعوة الإسلام إلى ضرورته سواء في كتاب الله أو سنة رسوله ، وكذا على لسان كل من تعاقب من العلماء المسلمين حتى عصر الناس اليوم عند المفكرين والباحثين الأكاديميين. لأنه لايمكن تصور نهضة أمة ولا ازدهارها دونما تمكين العقل من كل إمكاناته، وتزويده بشتى الآليات التي تعينه على التفكير والخلق والابتكار والإبداع.

- **إشكالية البحث:**

يعد الحجر على إمكانات العقل، وتكريس الجمود الفكري، وطغيان التبعية والتقليد الأعمى، والسعي في تغييب قدرات العقل، من أخطر الأسلحة التي تفتك بنهوض المجتمعات، وتسبب انهيارها وسقوطها إلى ذيل الأمم، وحتى تسلم مجتمعاتنا المسلمة من هذا الخطر، صار لزاما علينا التذكير بين الفينة والأخرى بقيمة استقلالية الفكر في تحقيق النهضة، خصوصا مع طغيان الاستلاب الفكري لدى فئات عريضة من الشباب، الذين عشش في عقول الكثيرين منهم انعدام الجدوى من التفكير، وآمن كثيرون أن الخلاص من جميع أنواع المشاكل في الحياة لا يتحقق إلا بالتقليد والتبعية لأشباه الناجحين، دونما منح للعقل إمكانية التفكير في إيجاد الحلول الناجعة لما يعانيه من إشكالات ومعيقات، وهذا الأسلوب في التعاطي مع العقل هو الذي يكبله ويقيده ويرميه في سجون التخلف، وأقفاص الانحطاط الفكري والحضاري للأمم، فلابد من تظافر جهود الجميع وخاصة التربويين والباحثين الأكاديميين لتشخيص إشكالات التفكير، مع البحث عن الوسائل والكيفيات الصحيحة لتعويد الشباب على الطرق المناسبة للتفكير مهما كانت الظروف والإشكالات التي يعيشونها، حتى نصل إلى غاية تكثير المبدعين في أوقات الأزمات.

- **دراسات سابقة:**

تنوعت الأبحاث الكثيرة التي تتحدث عن مبدأ التفكير عموما، أو التفكير وفق المنهج الإسلامي على الأخص، لكن القليل منها من أشار في بحث خاص إلى أهمية الاستقلالية الفكرية في تنمية عقول الشباب المسلم، ومن هذه الدراسات نجد ما يلي:

- الفكر الإسلامي بين العقل والوحي: لعبد العال سالم مكرم.
- الفكر الإسلامي مواجهة حضارية: محمد تقي المدرسي.
- الفكر الإسلامي الحديث: محمد بهي.
- الفكر الإسلامي مفهومه ومعالمه: أحمد حسن فرحات.
- الفكر الإسلامي منهج للإصلاح: طه جابر العلواني.
- الفكر الإسلامي بين التأصيل والتجديد: زكي الميلاد.
- الفكر الإسلامي وقضايا السياسة المعاصرة: أحمد الريسوني.
- الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي: فؤاد محسن الراوي.

- الفكر الإسلامي بين النهضة والتجديد: بلال نعيم.

- **مفهوم الفكر:**

تعددت تعريفات علماء الإسلام لمصطلح الفكر، وتدور أغلبها حول إعمال العقل في الشيء بغية الوصول إلى المعارف أو الحقائق اليقينية. لأنه إذا لم يكن الغرض من التفكير هدف ذا قيمة كونية أو إنسانية فلا فائدة منه، وقد اعتنت قواميس اللغة والدراسات المنطقية والعلمية بهذا المصطلح فعرفته وتحدثت عنه، فحددته تحديداً واضحاً وعرفته تعريفاً دقيقاً، ومنها:

ما أورده **ابن منظور** في كتابه "لسان العرب" مادة فكر قائلاً: (الفكر اعمال الخاطر في شيء)[1].

وقال **الراغب الاصفهاني** في كتابه "معجم ألفاظ القرآن" مادة -فكر- (الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني وهو فرك الامور وبحثها طلباً للوصول الى حقيقتها)[2].

وجاء عند **ابن فارس**: (فكَرَ. الفاء والكاف والراء: تردّد القلب في الشيء، يقال: تفكَّر، إذا رَدَّدَ قلبه معتبرًا، ورجل فِكِّيرٌ: كثير الفكر).[3]

في حين عرّف الشيخ **محمد رضا** في كتابه "المنطق" الفكر بقوله: (أن النظر – الفكر – المقصود منه إجراء عملية عقلية في المعلومات الحاضرة لأجل الوصول إلى المطلوب)[4].

فإذا كان الإنسان مميزًا مكرمًا بالعقل بما يستلزمه هذا من اختزان الصور، والقدرة على استدعائها، وربط الأسباب بالنتائج بشكل أو بآخر، بساطةً أو عمقًا، فإن الفكر وإدراك المعلومات يُصبِح شيئًا من طبيعة هذا المخلوق يمارسه، فيُعمِل عقله حين يجد نفسه حيالَ مشكلة من المشكلات، باحثًا لها عن حل، في ضوء المبادئ السائدة وظروف البيئة التي يتوجه إليها بالخطاب[5].

- **مفهوم الفكر الإسلامي:**

أكد العديد من الباحثين والمفكرين المسلمين أن التفكير من منظورنا منبعه الإسلام الذي جاء ليحرر العقل ويمنحه سلطانا، في زمن كان الاستعباد والحجر على حريات الناس في عقولهم وفكرهم وأفعالهم هو السائد قبل بزوغ فجره، لذلك فالعلاقة بين الإسلام والفكر هي علاقة تناسب وتكامل، وعلاقة السبب بالمسبب، ولم تكن أبدا مبنية على الصراع والتنافر كما في الأمم الأخرى التي حاربت المفكرين وأبادت بعضهم، فاختفى معهم نتاج عقولهم وفكرهم، أما من منظور الإسلام فنؤمن أنه بالفكر والعقل تتحقق مبادئ الإسلام، ويسطع نوره كلما جدد المسلمون طرائقهم في التفكير، وبدون ذلك يختفي نور الدين الحق ويندثر أثره في الواقع والنفوس، يقول الدكتور: **"محمد أبو ريدة"** وهو يشرح الارتباط بين الإسلام والعقل والفكر: (والحق أن الأمر بالنسبة للفكر والمفكر المسلم، يختلف عنه في كل حضارة أخرى أو فهم آخر. لأن الفكر مِن أول الأمر - وهذا ما يجب أن نؤكِّده دائمًا - قد ارتبط بأصول الإسلام، وهي واضحة بأدلَّتها، بالإضافة إلى أن منهج الإسلام - سواء في مجال علوم الدين، أو في مجال العلم والفلسفة بوجه عامٍّ - منهج عقلي، ولم تكن المشكلةُ في الإسلام هي مشكلةَ التوفيق بين الدين والعقل، بل فهم الدين بالعقل)[6].

فعرفه العديد من المفكرين الإسلاميين بعدة تعاريف كلها تؤكد على إعمال الباحثين أو العلماء المجتهدين وسعهم العقلي، وجهدهم الفكري في ضوء الشريعة أو تاريخها لشرح الإسلام أو تيسير فهمه في ضوء القرآن والسنة والسيرة النبوية، فعرفها أحد الباحثين بقوله: (الفكر الإسلامي هو المحاولات العقلية لعلماء المسلمين لشرح أبعاد الإسلام من مصادره الأصلية. وهما القرآن والسنة)[7]،

---

[1]) ابن منظور، لسان العرب: مادة (فكر).

[2]) الراغب الاصفهاني، المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، طبعة المكتبة الإسلامية إستانبول، تركيا، الطبعة الثانية (بدون تاريخ)، الجزء الثاني مادة (فكر). ص698.

[3]) ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، عن دار الجيل، الطبعة الأولى 1411ه- /1991م، مادة (فكر)، الجزء الرابع ص446.

[4]) محمد رضا، المنطق 23/1

[5]) حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، في فكرنا المعاصر، ص: 5، دار الثقافة بالقاهرة، 1410ه - 1990م.

[6]) محمد أبو ريدة، أمهات المسائل في الفكر الإسلامي، بحث منشور في جريدة القبس الكويتية، الجمعة 6/ 10/ 1989م، ص 12، 13

[7]) محمد بحر محمد حسن، (الفكر الاسلامي، المفهوم، المصادر، الخصائص، التحديات: دراسة مقارنة)، مجلة أسيوط لبحوث الدراسات الإسلامية، المجلد 1، العدد 1 يناير 2019، الصفحة: (300-263).

وعرفها الباحث **محسن عبد الحميد** بقوله: (هو يعني كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث إلى اليوم، في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني في تفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكا)[8]
وعرف كذلك بأنه: (المحاولات العقلية والجهود العلمية التي بذلها المسلمون منذ انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه، لفهم الإسلام وعرضه، ومواجهة المشكلات الواقعة في ضوء أصوله ومبادئه)[9]
فالملاحظ على هذه التعريفات أنها تدعو بصراحة إلى اعتماد آلة الفكر والعقل في ضوء الشريعة لحل الإشكالات الراهنة، ولخص الدكتور **"أيسر فائق حسني"** المراد من الفكر الإسلامي في:

- إعمال العقل في محاولة فهم الدين الإسلامي
- الاعتماد على النصوص الشرعية والمبادئ الإسلامية
- استنباط الأحكام الشرعية من المصادر الأصلية والسعي لحل المشاكل الطارئة التي تواجه المجتمع الإسلامي[10]

- **مفهوم الاستقلالية الفكرية:**

يراد بذلك تحرير العقل من سلطان التحكم والاستعباد وبناء المفاهيم الخاصة بنا، والتحرر من التبعية للغير، وأن يكون للفرد كامل الحرية والحق في النظر والنقد والاستدلال، وعدم التقيد بالأفكار السائدة أو الوافدة دون كبير تمحيص أو تبصر خصوصا في واقعنا اليوم، ويؤكد ذلك الدكتور **محمد يوسف** في مقال له حول "الاستقلال الفكري" قائلا: (إنَّ الجهد الفكري الذي يجب بذله اليوم هو التحرر من المفاهيم الوافدة من فضاءات أخرى، والاجتهاد في بناء المفاهيم التي يقوم عليها تصورنا نحن المسلمين للكون والحياة والعلوم، وإلا فإن مفاهيم الآخر ستكون بلا شك طوقا نضربه حول أعناقنا، ونكرّس به التبعية لغيرنا)[11]، ويتأكد ذلك لدى فئة الشباب التي وجب أن تنمى لديها **مهارات التفكير** والتي تعمل على دعم قدراتهم في طرح الأسئلة الهامة وتحليل المعلومات، وتعزيز الاستقلال في الفكر ومن ثمّ الوصول لنتائج أفضل، ولذلك فمهارات التفكير تُعد أحد أهم المهارات الحيوية التي يجب تنميتها لتحقيق النجاح في المستقبل، ومن بين المهارات الأساسية التي ينحو غالبية التربويين بتنميتها لدى الشباب بما يحقق استقلالهم الفكري ما يلي:
التفكير المجرد، التفكير التحليلي، التفكير التطبيقي، التفكير الترابطي، التفكير الملموس، التفكير الإبداعي، التفكير النقدي، التفكير المتباين، التفكير المتقارب، التفكير فيما وراء المعرفة..
ولكل واحدة من هذه المهارات محدداتها وزمان تنميتها لدى الشباب، بكيفية تراعي قدراتهم المعرفية، وفروقهم الفردية، وطرائق تكوينهم، والظروف البيئية التي يعيشون فيها، حتى تثمر نتائج تعود على صاحبها ومحيطه بالمنفعة والمصلحة.

- **أهمية الاستقلال الفكري:**

للاستقلال الفكري أدوار مهمة في توسيع المدارك الفردية والجماعية، ولها دور فعال في تصحيح المسارات الخاطئة التي تعوق نمو المجتمع، وتحول دون تطوره فكريا واقتصاديا وعمرانيا وحضاريا، ويتضح ذلك من خلال كون:

- الاستقلال الفكري يعين الفرد على التصالح مع ذاته واكتشاف قدراته، وإعادة إعمال فكره في واقعه ومحيطه الذي كان محتجبا عنه بفعل التبعية والجمود.
- الاستقلال الفكري يمنح الفرد القدرة على مناقشة الواقع ورفضه كل السلوكات التي تحول دون ازدهاره وتطوره. وأكد أحد مفكري الغرب بأن: (التفكير هو مبدأ ارتقاء البشرية وتطورها، وبقدر شيوعه يكون التفاضل بين الناس، وقديما حجرت تقاليد دينية حرية التفكير واستقلال العقل على البشر، حتى جاء الإسلام فأبطل بالقرآن والسنة هذا الحجر وأمر بالتفكر والتدبر)[12].

---

[8]) محسن عبد الحميد: تجديد الفكر الإسلامي، (ص: 18)
[9]) راشد شهوان، محاضرات في الثقافة الإسلامية، (ص: 45)
[10]) أيسر فائق حسني، مدخل لدراسة الفكر الإسلامي (ص: 3)
[11]) محمد الحبر يوسف، مجلة الشرق: مقال: الاستقلال الفكري / بتاريخ: 14يوليو 2015، (21/02)
[12]) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1990، ج11، ص230.

- الاستقلال الفكري هو الكفيل بمناقشة كل الظواهر السلبية في شتى المجالات الأخلاقية سياسية أو تربوية... والتي إن بقيت أو انتشرت ربما تؤدي إلى انهياره.
- الاستقلالية الفكرية بمثابة السلطة القضائية التي لها الحق في إصدار الأحكام الآنية على كل السلوكات التي تعوق التنمية، وهو ما يعين السلطة التنفيذية على سهولة استصدار قوانين أو أحكام رادعة وحامية للدولة وللمؤسسات الاجتماعية.
- الاستقلال الفكري يحقق لمعتنقه التوازن النفسي عند تعامله مع الواقع وعدم انصياعه لآراء وأفكار قد تفضي إلى انحرافه، أو خضوعه لسطلة أفكار منحرفة أو مرفوضة.
- الاستقلال الفكري هو الذي يرسخ الإيمان بصدق الرؤى والأفكار، وانسجامها مع الواقع لتحقيق المهام الهادفة لتطور وتقدم المجتمع.
- الاستقلال الفكري هو الذي يعيننا على اتخاذ المواقف الصحيحة والمتوازنة من القضايا الاجتماعية لخلق حالة من الوئام والتوافق بين فئات المجتمع، وتوظيف كافة الطاقات العلمية والثقافية والفنية لتطوره وتقدمه.
- وأهم شيء في الاستقلال الفكري أنه الكفيل بالقضاء على ظاهرة التعصب الأعمى والمذموم لفكر أو معتقد أو سلوك ما دون النظر إلى نقيضه، الذي لربما يكون هو الصواب، وهذا كان شعارا عند الأسلاف كما اشتهر على لسان **الشافعي رحمه الله** قوله: (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب).
- الاستقلال الفكري هو الذي يبني مجتمعا متمدنا، تطغى عليه في شتى ميادينه وفضاءاته مظاهر التوازن والازدهار والرقي والجمال. يقول الباحث **"عبد العزيز بن ادريس"**: (وهكذا خرج الإسلام بالإنسانية من طور الخمول والظلام والركود إلى طور كله حركة وبناء ونور وإشراق، وحاز المسلمون شرف الاحتفاظ بالحضارة القديمة ونقلها بأمانة إلى الأجيال التي بعدهم ... وتمكن المسلمون بتطبيق هذا المبدأ القرآني من الاستمرار في قيادة الفكر وزعامة العالم في الحضارة والتمدن أكثر من ألف سنة.)[13]

- **الاستقلال الفكري في القرآن والسنة:**

✓ **في القرآن الكريم:**

إن الدارس للقرآن الكريم يجده أكثر شيء يبهر عقله، وترتاح إليه نفسه، وأقرب كتاب إلي المنطق العقلي لكثرة الكلمات والألفاظ التي استعملت للدلالة على حركة الفكر مثل العقل، واللب، والتفكير، والتدبير، والعلم، والفقه، والنظر، والاعتبار، والتذكر، ومدح الذين يفكرون ويتدبرون ويعقلون، وذم الذين لايفكرون وإزالة صفة الآدمية عنهم، وإنزالهم منازل السوائم، وذلك لا يوجد في كتاب سماوي غيره[14]، وإحصاء مادة (ف ك ر) وحدها بتنوع ألفاظها عدا مرادفاتها تصل إلي ثمانية عشر موضعًا بصيغة المضارع، للدلالة على أنه فعل مطلوب باستمرار، مثل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: 24).

والآيات في هذا المقام تكاد لاتخلو منها طوال السور أو قصارها، بل إن القرآن الكريم كان كبير الفضل في تعليم المسلمين أسلوبا أكثر تطورا في توظيف العقل وهو أسلوب المناظرة والحجاج، وكيفية الدفاع عن الفكر أو الرأي الصائب سواء في مجال الاعتقاد أو التشريع أو أسلوب الحياة بمنهج راق ومؤدب كقوله سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (النحل:125)

فالقرآن الكريم هو أول كتاب فصل في مختلف أنماط وأدوار العقل، فالعمليات التي يقوم بها العقل حسب القرآن الكريم ليست محصورة في التفكير فقط، بل أبان كتاب الله على أن لهذه الآلة وظائف جد عجيبة تجمع بين النظر في ظواهر الأشياء أو الأحداث، أوالغوص في بواطنها من تفكير وتفكر وتأمل ونظر

---

[13]) عبد العزيز بن ادريس، مجلة دعوة الحق، العدد 12، مقال: استقلال الشخصية الإنسانية في الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.

[14]) عبد العزيز بن ادريس، مجلة دعوة الحق، العدد 12، مقال: استقلال الشخصية الإنسانية في الإسلام ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.

واعتبار وتدبر وتفهم وبصر وتأويل وبحث وشك ... وهلم جرا، ليدلنا سبحانه على إبداعه في هذا الخلق، فلم يكن من المنطق أن يكون للعقل إمكانات وقدرات هائلة تصل لعشرات الوظائف ثم يعمد صاحبها إلى إهمالها أو تجميدها أو تعطيل وظائفها، وهذا ما يفسر معاتبته وإنكاره على كل من جمد وظائف العقل في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾(سورة البقرة: 171).

ومن النماذج الواضحة الجلية الشاهدة على ذلك ما يلي:

قوله سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:46).

وقوله تعالى في سورة "سبأ" يخاطب المعاندين ويدعوهم إلى التأمل والتفكير: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سورة سبأ، آية: 46).

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: 51).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سيرُوا في الأرض فانظرُوا كيف بدأ الخلق ﴾ (العنكبوت: 20).

وقوله جل جلاله: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تنظرون﴾(الذاريات: 20).

فمن عطل عقله فقد وصف الله بالنقص -حاشاه- في حين أن أفعال الله وخلقه كلها شاهدة على إبداع الخالق، وإتقان الصانع الذي قال واصفا خلق الإنسان: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (سورة التين: 4)، وأجمل خلق في الإنسان، وبه تكريمه وتميزه ورفعته عن سائر الخلائق هو عقله الذي هو مناط التكليف، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء: 70)

وفي الوقت الذي دعا فيه الإسلام إلى الفكر والنظر نجده يدعو إلى التحرر من الجمود الفكري، ويحذر من الوثنية واستعباد الإنسان للإنسان، ودعا إلى البرهان والعقل فحرر الإنسان أولًا من رق التقليد الأعمى ورباه على حرية الفكر واستقلال الإرادة.

كما دعا الإنسان إلى التخلص من عبادة الأهواء وطالبه بالدليل ونعى عليه الجهل والمتابعة بغير اقتناع، فهي حرية فكرية تتقيد بالحق والدليل وتقوم على قواعد النظر والاستدلال بعيدًا عن الأهواء والأوهام. فقال سبحانه: ﴿ وإذا قِيْلَ لهم تَعالَوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرَّسول، قالوا حسبُنا ما وجدنا عليه آباءنا أَوْ لَوْ كان آباؤُهم لا يَعْلَمُون شيئاً ولا يَهْتَدُون ﴾ [المائدة: 104]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف: 28]

✓ **في السنة النبوية:**

أما في السنة النبوية والتي هي شرح للقرآن الكريم وتوضيح له فقد جاءت بأنواعها قولية وفعلية داعية إليه ومبينة كيفيته وداعمة دعوة القرآن الكريم إلى استقلال التفكر، ويتضح ذلك من خلال:

– –كون النبي ﷺ أول من التزم دعوة القرآن الكريم إلى التفكر والنظر والتأمل، كيف لا وهو الذي لم يرض لفكره وعقله أن يكون أسيرا لدى معتقدات جاهلية فرفض عقله السجود للأصنام قبل الإسلام، وما كان فكره يستسيغ أن يصير سجينا وراء قضبان الجهل والخرافات والأساطير الشركية الوثنية. لأنها تقلل من قيمة الإنسانية وتخرجه عن آدميته فاختار لنفسه الهروب إلى مكان بعيد يجد فيه حرية فكره ويطلق فيه العنان لتأملاته ويتحنث لملكوت ربه في الليالي ذوات العدد[15]، وحينما نزلت عليه آية سورة آل عمران، قام يصلي ويبكي «ولما جاءه بلالٌ يُؤذِنُه بالصَّلاةِ فلمَّا رآه يبكي قال: يا رسولَ اللهِ لِمَ تَبكي وقد غفَر اللهُ لك ما تقدَّم وما تأخَّر؟ قال: **"أفلا أكونُ عبدًا شكورًا"**. لقد أنزل علَيَّ اللَّيلةَ آيةٌ، ويلٌ لِمَن قرَأها ولم يتفكَّرْ فيها: ﴿إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»[16]

---

[15]) فعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كانَ أوَّلَ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الخَلَاءُ، فكانَ يَلْحَقُ بغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه - قالَ: والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ» صحيح البخاري رقم: (4953)

[16]) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، 2/ 386.

–أن النبي ﷺ علمنا ضوابط وآداب التفكر، ووجهنا إلى ضرورة إعمال الفكر والنظر في الموجودات وحذرنا من التقصي والبحث في المغيبات. لأن التفكير فيها ليس هو المقصود من أدوار العقل، فمن رمى بعقله للتفكير في بيداء الغيوب أصابه التيه: فجاء عنه : «لا تتفكروا في اللَّه، وتفكروا في خلق اللَّه، وفي رواية: تفكروا في خلق اللَّه، ولا تفكروا في اللَّه. فإنكم لن تَقْدِرُوا قَدْرَهُ، وفي رواية: تفكروا في آلاء اللَّه، ولا تتفكروا في اللَّه»[17] فالتفكر في خلق الله أو في نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، أمر محمود ومطلوب. لأنه سبيل إلى معرفة الله وخشيته. أما التفكر في ذات الله تعالى فهو يحمِّل العقل ما لا طاقة له به، ويجعله عرضة لمسالك الردى والزيغ!

كما حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من اتباع أراء الغير وتقليدهم في أعمالهم تقليدا أعمى دون تبصر أو إعمال للعقل والفكر. فعن حذيفة وابن مسعود رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يكن أحدكم إمعة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألا تظلموا»[18] أخرجه الترمذي

- **منهج الاستقلال الفكري في الإسلام:**

يعتمد منهج الاستقلال الفكري في الإسلام على الأسس والمبادئ التالية:

- الدعوة إلى إعمال الفكر والنظر وإطلاق البصر في الذات والموجودات، مع التأمل والتفكر فيها وفهمها واستيعاب حقيقة الغاية من خلقها وإيجادها.
- نبذ الجمود الفكري والتقليد الأعمى وتعطيل العقل، والاكتفاء بإملاءات الأجداد أو الخضوع للعادات والتقاليد وعدم مناقشتها والتفكر في صحتها من صوابها.
- تعويد فكر الإسلام على عدم التسليم بأي فكر أو رأي أو معتقد دون دليل أو حجة، مع مطالبة المخالفين بالدليل العقلي والبرهاني قبل الاقتناع بأي رأي كيفما كان قائله.
- قص القصص وطالب القارئ أو السامع بالتأمل فيها وأخذ العبرة منها، خصوصا فيما يتعلق بالأمم التي جمدت على عادات وتقاليد الأجداد السيئة، فكانت سبب هلاكها وخرابها، فيمكن القول أن تجميد العقل عن النظر والفهم والتأمل والاستبصار والاتعاظ يعد جريمة يعاقب عليها صاحبها وفق سنن إلهية أو كونية.

- **الاستقلال الفكري من منظور الصحابة رضي الله عنهم:**

لقد كان للرسول الكريم أسلوب فريد وطريقة بديعة في تربية الصحابة وتعويدهم على إعمال عقولهم في معرفة الحق، وتصحيح تصوراتهم ومعتقداتهم حول الإله والوجود والمصير، وكذا تعويذهم على النظرة الناقدة لكل الانحرافات الفكرية والسلوكية التي كانت سائدة في مجتمعهم، فلم يؤسس فيهم قواعد الإيمان والأخلاق فقط، بل ربّاهم على التميز، وشجَّعهم على الابتكار والتجديد، واشتدت عنايته -صلى الله عليه وسلم- بالمبدعين من أصحابه، وقد كان الرسول مدركا أن صحابته الكرام متفاوتين في القدرات العقلية والمواهب انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ (النحل:71)، فيتمايزون في طبائعهم، وقدراتهم العقلية والبدنية، وتلك هي حكمة الله تعالى أن يخلق الخلق على هذا التفاوت والتمايز، فكان عليه السلام ينمي هذه القدرات لديهم ويشجعهم دائما على تجويدها، ويقلدهم مناصب في الحكم والسيادة والقيادة بناء على ذلك. فعن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ، ولكل أمة أمين. وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[19].

---

[17]) السخاوي، المقاصد الحسنة، 260، 261. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خَلَقَ اللهُ الخلقَ، فمن خلق الله، فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله» صحيح مسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ بَابُ بَيَانِ الْوَسْوَسَةِ فِي الْإِيمَانِ وَمَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهَا حديث رقم: (221)

[18]) الترمذي رقم: (2007)، بإسناد ضعيف، وقد ضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في "ضعيف الترمذي" غير أنه صححه من قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[19]) **الترمذي** برقم (3790)، وصححه الألباني.

"والمتأمل للأسلوب النبوي الفريد في التربية يجد أنه كان يوفر لهم البيئة الآمنة، والميدان الحُرّ الفسيح لبروز إبداعاتهم ... فأنتج المبدعون من الصحابة -في رحاب تربيته صلى الله عليه وسلم- أفكارًا متطورة، ونفَّذوا مشاريع عظيمة امتد نفعها إلى يومنا"[20]

ومن أبدع أساليب التفكير التي رسخها النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه واعتمدها التربويون اليوم، ما يلي:

- الطلاقة: وهي القدرة على إنتاج أفكار وحلول بديلة بسهولة.
- المرونة: وهي القدرة على توليد وعرض الأفكار من زوايا متعددة وغير تقليدية.
- الأصالة: وهي تقديم أفكار وحلول فريدة في نوعها وعالية في مستواها[21].

وقد ظهرت نتائج هذه التربية النبوية بظهور نخبة من الصحابة المبدعين والمجتهدين والذين أطلقوا العنان لفكرهم وبذلوا الوسع العقلي لمعالجة الكثير من النوازل التي طرأت بعد زمان النبوة، وكل ذلك اكتسبوه من منهج النبي ﷺ الذي درب بعض أصحابه على الاجتهاد وعلى تنمية ملكات عقولهم واستقلالية تفكيرهم، كما كان يفعل مع أبي بكر وعمر وعلي وعمرو بن العاص وغيرهم. والأمثلة لا حصر لها من ضمنها حين اختلفوا في أمره حين أمرهم ﷺ بصلاة العصر في بني قريظة[22]، " فقال بعضهم: لا نصلي إلا في بني قريظة، وإن خرج وقتها، لقول النبي – ﷺ – «لا تصلوا العصر إلا بها» ، وقال بعضهم: إنما أمرنا بذلك لتعجيل المصير إليها، من غير ترخيص منه في تركها إلى خروج وقتها. ففعل كل فريق منهم ما رأى، ثم ذكروا ذلك للنبي – ﷺ – فأظهر تصويب الجميع، إذ كانوا فعلوه باجتهاد آرائهم"

وكانت لهم مدارس للاجتهاد ونشر العلم النبوي أشهرها مدرسة المدينة المنورة بالحجاز، وأشهر أعلامها زيد بن ثابت، مدرسة الكوفة بالعراق، واشتهرت بفقه ابن مسعود وهو من كبار فقهاء الصحابة، ومن أكثرهم فقها بالكتاب والسنة، ومدرسة مكة واشتهر فيها مذهب ابن عباس، وكان من أكثرهم اجتهادا وبصرا بالواقع وتكييف النصوص لمعالجة مشكلات العصر والبيئة والمحيط سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان من أوائل من أبدع دليلا جديدا من أدلة الاجتهاد وهو القياس، الذي يعطي للعقل والفكر المتزن المنضبط بالشريعة كامل الحرية الفكرية في إنتاج أحكام وتشريعات باعتماد آليات النظر، ودقة الفهم وحسن الاستنباط من روح الشريعة ومنبعها المعين، وهما القرآن الكريم والسنة النبوية يقول ابن القيم رحمه الله: (فالصحابة – رضي الله عنهم – مثلوا الوقائع بنظائرها، وشبهوها بأمثالها، وردوا بعضها إلى بعض في أحكامها، وفتحوا للعلماء باب الاجتهاد، ونهجوا لهم طريقه، وبينوا لهم سبيله)[23]، وقد ورد في كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ما يدل على مشروعية القياس العقلي في قوله: (اعْرِفِ الأشبَاهَ والأمثال، وقِسِ الأمور)[24]، ولم يتح سيدنا عمر هذه الاستقلالية الفكرية للرجال فقط بل تعداها حتى للنساء، فلم يحجر عليهن ولا اعتبر صوتهن عورة، وإنما كان يقبل بآرائهن واعتراضهن إن كان يوافق الحق والصواب كقبوله باعتراض امرأة من المسلمين حول تحديده لمقدار الصداق، فلما أدلت برأيها الذي يشهد له النص أخذ به ورجع عن قراره بتحديد الصداق، فقد روي عن مسروق قال: (ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وإنما الصَّدُقات فيما بينهم أربع مائة درهم فما دون ذلك ، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها فلا أعرفنَّ ما زاد رجل في صداق امرأة على أربع مئة درهم، قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيتَ

---

[20]) سحر شعير، "كيفَ رَبَّى النبيُّ أصحابَه على التجديدِ والإبداع" ، مجلة رواحل الالكترونية، بتاريخ 2أغسطس 2021.

[20]) نادية سرور، مقدمة في الإبداع، (ص51).

[21]) تمام الحديث قول النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ الأحْزَابِ: «لا يُصَلِّيَنَّ أحَدٌ العَصْرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ.» فأدْرَكَ بَعْضُهُمُ العَصْرَ في الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا نُصَلِّي حتَّى نَأْتِيَهَا، وقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذلكَ، فَذُكِرَ ذلكَ للنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمْ يُعَنِّفْ واحِدًا منهمْ. صحيح البخاري: (4119)، مسلم:(1770) .

[22]) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين(1/10)

[23]) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين(166 /1)

[24]) الدارقطني، سنن الدارقطني، كتاب في الأقضية والأحكام وغير ذلك، كتاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رقم: (\ 4391 15)، الأثر بتمامه بحسب المقام: (الفهم فيما تخلج في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، اعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عند ذلك فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى، واجعل للمدعي أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه وإلا وجهت القضاء عليه، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ في العذر).

النَّاس أن يزيدوا في مهر النساء على أربع مائة درهم ؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال: وأي ذلك ؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وآتيتُم إحداهنَّ قنطاراً﴾ الآية ؟ قال: فقال: اللهمَّ غفراً، كل النَّاس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر، فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربع مائة درهم، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل)[25].

وهذا الانفتاح الفكري أدى إلى ظهور نشاط في حركة الاجتهاد الجماعي في وقت مبكر، حيث كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجمعان فقهاء الصحابة فيما يستجد من نوازل، وقد منع عمر رضي الله عنه كبار الصحابة من مغادرة المدينة المنورة، عاصمة الخلافة، لذلك تميز الانفتاح الفكري في زمن الصحابة رضي الله عنهم بكونه:

- الغرض الأساس منه البحث عن المصلحة الشرعية في المسائل المجتهد فيها.
- فقه للواقع ومراعاة حاجات المجتمع المسلم.
- أنه فكر امتاز بالمرونة وترك التعصب ولم يعرف الترف ولا الافتراض، فلم يكن فقه الرأي الواحد، وإنما شهد جيل الصحابة تنوعا فكريا في كيفية قياس الأمور، ما أثرى عمل الفقهاء الذين بعدهم.
- أنه مهد لظهور المدارس الفقهية المتنوعة، من مدرسة الحديث والأثر ومدرسة الرأي والقياس، وأسس لظهور المذاهب الفقهية وفي طليعتها المذاهب الأربعة.

- **الاستقلال الفكري لدى علماء الإسلام وفقهائه:**

إن الاستقلال الفكري لدى علماء الإسلام يكاد يكون هو السمة الغالبة في معظم تصانيف الفقهاء عبر كل مراحل الإسلام، والمتأمل في مصنفات جل فقهاء المذاهب الإسلامية خصوصا الأربعة يجد أنها عرفت حركة علمية نشطة أسهمت بشكل كبير في ظهور الكثير من المؤلفات، بل وفي الكثير منها خرج أصحابها عن الرأي أو المذهب المشهور لدى شيوخهم، وهو ما عرف بالاستقلال المذهبي، وهذا ما جعل المدارس العلمية في مختلف الأمصار الإسلامية تتميز بالموسوعية وغزارة الإنتاجات الفكرية والعلمية، وجمع أصحابها بين مختلف العلوم سواء كانت كونية أم شرعية كما هو حال علماء الأندلس أو العراق الذين برعوا في الفقه والتفسير، وتبحروا في الفلسفة والطب والصيدلة والتاريخ وعلم الاجتماع ... وغيرها من العلوم، فلم يكن هؤلاء الفلاسفة والأطباء والمؤرخون في الحقيقة إلا فقهاء، وأكد الدكتور مصطفى الهروس أن هذا عد سمة بارزة بالمدرسة المغربية الأندلسية، فلا تكاد تجد مدرسة من مدارس المالكية إلا واشتهر فيها من عرف بالاستقلال عن مذهب مالك في الكثير من الفروع الفقهية، وقد ضمت المدرسة المالكية الأندلسية في الغرب الإسلامي العديد من أعلام وأعيان المذهب المالكي البارزين الذين اشتهروا بالاستقلال الفكري والمذهبي في العديد من المسائل والمواقف عن رأي مالك، وذلك لبلوغهم مراتب علمية عالية مكنتهم من الاجتهاد والانفراد بآراء واجتهادات فقهية ميزتهم عن غيرهم من أعلام المذهب المالكي، أو سائر المذاهب بالأقطار الأخرى حتى صار ذلك من خصائص ومميزات هذه المدرسة، يقول الدكتور مصطفى الهروس: (وهذه الاجتهادات هي عبارة عن مخالفات **استقل** بها أئمة الأندلس عن رأي الإمام مالك، ورأي كبار أصحابه كابن القاسم، فأصبحت هذه الآراء هي المعتمدة والمتبعة بسائر بلاد الأندلس والمغرب، وعليها جرى العمل في القضاء والفتيا) [26]، وقال أيضا: (إن الكثير من أعلام الفقه المالكي بالأندلس قد بلغوا مراتب علمية مكنتهم من الاجتهاد **والاستقلال بآراء واجتهادات** ميزتهم عن غيرهم من أعلام المذاهب الأخرى، حتى صار ذلك من خصائص ومميزات هذه المدرسة)[27].

فهذا دليل ساطع على أن الاستقلال الفكري يعد من الشروط الأساسية الواجب توافرها في العالم المجتهد، فلا يمكن عد المقلدة أو الجامدين على آراء الشيوخ أو الفقهاء مجتهدين أو علماء حتى تكون لهم آراؤهم

---

[25]) البيهقي في السنن (233 / 7)، والهيثمي في مجمع الزوائد(284 / 4) ، وعبد الرزاق في المصنف (180/6)، و ابن كثير في تفسيره: (468/1).

[26]) المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية ق3 ه نشأة وخصائص (ص: 279)

[27]) وقد خصص الدكتور مصطفى الهروس فصلا خاصا بعنوان: (تميز المدرسة الأندلسية بالموسوعية، وجمع فقهائها بين مختلف العلوم) ومن أمثال هؤلاء عبد الملك بن حبيب، وحفص بن عبد السلام السلمي، وعبد الله بن يحيى الحساب، وعبد الله بن محمد بن إبراهيم.. وغيرهم (المدرسة المالكية الأندلسية: ص:328/327)

الاجتهادية التي بذلوا فيها وسعهم وطاقتهم لتناسب الوقائع والنوازل التي طرأت في واقعهم وزمانهم، وقد أكد **"السيد مرتضى اليماني"** أن الداعي الأساس لتأليف كتابه (**إيثار الحق على الخلق**)، ليس إلا تحقيق مبدأ الاجتهاد والبحث والنظر وإعمال العقل العلمي في الآراء المختلفة للوصول إلى الرأي والصواب، مؤكدا أن هذا الأسلوب كاد ينعدم في زمانه وواقعه رغم كونه من أوجب الواجبات، حيث قال في مقدمة كتابه: (وإنما جمعت هذا المختصر المبارك -إن شاء الله- تعالى لمن صنفت لهم التصانيف وعنيت بهدايتهم العلماء، وهم من جمع خمسة أوصاف معضهما الإخلاص والفهم والإنصاف ورابعها - وهو أقلها وجوداً في هذه الأعصار - الحرص على معرفة الحق من أقوال المختلفين وشدة الداعي إلى ذلك الحامل على الصبر والطلب كثيراً **وبذل الجهد في النظر** على الإنصاف، ومفارقة العوائد وطلب الأوابد)[28]

فمن أبرز علامات تشجيع علماء الإسلام على استقلالية التفكير ما يلي:

- ✓ **الدعوة إلى الاجتهاد.** وفيه من المؤلفات مالا حصر له
- ✓ **ذم التقليد.**

وقد بلغ الحد ببعض العلماء إلى تحريم التقليد والجمود الفكري، لتصادمه البين مع صريح النصوص الشرعية الداعية إلى إعمال النظر والفكر، وصنف العديد منهم مصنفات في مدح الاجتهاد وذم التقليد، وعقدت أغلب كتب الأصول فصولا ومباحث تحث على الاجتهاد لارتباطه الوثيق بحل إشكالات الواقع وتحدياته، وتذم العاجزين عن تحريك ما ركد في عقولهم، وتجدهم يقبلون على المصنفات التي أبدع فيها أصحابها وأضافوا من بنيات أفكارهم ما يغذي العقول أو ينمي المعارف أو يقدم حلولا ناجعة للمستعصيات من المشاكل المجتمعية، يقول **سلطان العلماء "العز بن عبد السلام"** في كتابه **[قواعد الأحكام]**، وهو يذم ظاهرة الجمود الفكري، والتقليد الأعمى، ويتعجب من تعصب البعض لأقوال لاسند لها ولا توافق صريح النص ولا صحيح العقل والتي هي السبب في منشأ الصراع والاختلاف بين الفقهاء المقلدة قائلا: (ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين -بكسر اللام- يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه حيث لا يجد له مدفعاً ومع هذا يقلده فيه، ويترك الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه جموداً على تقليد إمامه، بل يتحايل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلده بفتح اللام حتى ظن أن الحق منحصر في مذهبه، وإذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه قال: لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه ولم اهتد إليه. ولم يعلم المسكين أنه مقابل بمثله، فالبحث مع هؤلاء ضائعٌ مفضٍ إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة)[29].

وقد أثِر هذا المنهج عن كبار أئمة الإسلام كالأئمة الأربعة الذين حذروا بأشد اللهجات، وفي مختلف المناسبات من تقليدهم تقليدا أعمى دونما تبصر وتمحيص، أو تقديم آرائهم على شرع الله تعالى، يقول الإمام مالك: (إنما أنا بشر أُخطئ وأُصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسُّنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسُّنة فاتركوه)[30]، ويقول الإمام الشافعي: (إذا وجدتُم في كتابي خلاف سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوا ما قلت) وفي رواية: (فاتَّبِعوها ولا تَلتفتوا إلى قول أحد)[31]، ويقول الإمام أحمد: (لا تُقلدني ولا تقلِّد مالكًا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخُذ من حيث أخذوا)[32].

وقد عقد **الحافظ أبو عمر بن عبد البر** -رحمه الله تعالى- بابا جامعا في ذم التقليد والتحذير منه في كتابه جامع بيان العلم وفضله، أسماه "باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتِّباع" قائلا: (قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه، فقال :﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾(التوبة: 31)[33]

وبعد أن ذكر مجموعةً من الآيات الواردة في ذم التقليد ونعي أصحابه، قال: "وقد احتجَّ العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يَمنعهم كفر أولئك مِن الاحتجاج بها. لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما

---

[28]) القاسمي، جمال الدين ، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، (1/ 39)، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة.

[29]) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام: 2 /135 - 136.

[30]) الشاطبي، الموافقات: 289/4، القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد ص: 42.

[31]) ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين: 285/2، إيقاظ الهمم: ص: 100، المدخل لابن بدران ص: 140.

[32]) ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين: 139/2.

[33]) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص: 387.

وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين (في كونهما اتباعًا) بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلًا فكفر، وقلد آخر فأذنبَ، وقلد آخر في مسألة فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملومًا على التقليد بغير حجة. لأن كل ذلك تقليد يُشبِه بعضه بعضًا، وإن اختلفت الآثام فيه)[34].

- **الاستقلال الفكري لدى العلماء المعاصرين وعند المفكرين والباحثين الإسلاميين:**

تنوعت وتعددت الكتابات التي عالجت بنية العقل العربي والاسلامي عموما، وكذا الإشكالات التي تعوق مسار التفكير لديه، وبعضها قدم دراسات وأبحاث غربية بهذا الخصوص، وحاول البعض الآخر ذكر الحلول الناجعة للخلاص من ظاهرة الجمود الفكري لدى العقلية العربية الإسلامية، وحاول كثير من الباحثين والمفكرين نقل أساليب التفكير الفعال كالتفكير الايجابي أو الاستراتيجي الفلسفي المعاصر ممن تلقوا تكوينات حولها في دول غربية، وبذلوا جهودا حثيثة لتنزيل هذه الأساليب المبتكرة والمستوردة عبر محاضرات أو ترجمات أو أوراش ثقافية وعلمية، لكن تبقى هناك العديد من الإشكالات المطروحة في هذا الصدد وتتمثل في:

- إلى أي حد استطاعت كل هذه الجهود استنهاض الهمم لدى المجتمع المسلم وتحفيزه على تحقيق الإستقلالية الفكرية؟ وهل كل ما قدم كاف لإقناع المجتمعات المسلمة بالاستقلالية الفكرية؟
- وهل تساعد الظروف الاجتماعية والسياسية وكذا الثقافية على خلق هذا النوع من التفكير في واقعنا؟
- وهل تنزيل هذه الأساليب في التفكير المستوردة من مفكرين غربيين مختلفين عنا من حيث البيئة ومناخ التعليم ستساعد الإنسان المسلم على الانسجام مع بيئته ومحيطه، أم إنها لاتعدو أن تكون إسقاطا يفتقر في غالب أحيانه إلى دراسة جدواه وصلاحيته، وكذا دراسة العقلية الحالية للمجتمعات المسلمة في ظل الظروف الراهنة التي يعيشونها؟
- وأيضا وهو المهم هل العقلية المسلمة مقتنعة بجدوى التفكير أساسا، أم تعتبره لايعدو أن يكون إرهاقا للذهن ولاجدوى منه أمام طغيان التفكير في جلب الماديات، التي صرفت عقول الكثيرين وشوشت على مسارات التفكير لديه؟.

فكل هذه الحيثيات وغيرها وجب مراعاتها بغية النجاح في تطوير الاستقلالية الفكرية لدى عقلية الإنسان المسلم وخاصة فئة الشباب. لأنه وبالرغم من كل الجهود المبذولة في هذا المجال، من أبحاث وكتابات، ومحاضرات وندوات قد تصل إلى المئات إلا أن جدواها وأثرها لايزال ضعيفًا. بالمقارنة مع حجم ظاهرة التقليد والتبعية للآخر، ولافتقارها اعتماد الأساليب الصحيحة لأجرأتها عمليا في واقع الشباب، ولا يعدوا بعضها أن يكون مجرد أعمال مهدورة الجهد ومنعدمة القيمة مالم نلمسها في حال الشباب الذين هم قادة المستقبل وحملة مشعله.

- **الخلاصة والتوصيات:**

ونخلص من هذا الموجز البحثي إلى أن للتفكير عموما، وفي ضوء المجتمع الإسلامي على الأخص ضرورات ملحة لا يمكن تصور وجود إنساني أو حضاري بدونها، وإلا عد المسلمون عالة على هذا العالم، لا يبدعون ولا ينتجون. لأنهم لا يفكرون، وإنما ديدنهم الاستهلاك لما أنتجه الآخرون في شتى الأصعدة والمجالات، لذلك يوصى في ختام هذه المقالة بالتوصيات التالية:

- إن على العلماء والباحثين المسلمين أن يأخذوا على عاتقهم أن مسألة غرس هذا المبدأ مسألة وجود أو عدم في تاريخ الإنسانية وفي حاضرها ومستقبلها.
- إن تنمية الاستقلالية الفكرية لدى المجتمع المسلم ينبغي أن تشغل بال جميع مكونات المجتمع، بما فيهم أصحاب القرار السياسي والسيادي.
- إن ترسيخ استقلالية الفكر ينبغي أن تبدأ منذ المراحل الأولى والمبكرة لتنشة الفرد المسلم، وذلك بتنميتها في جميع مراحل تعلمه وتدريسه، وتطويرها حتى تصل إلى أرقى مراتبها في تكوينه الأكاديمي الجامعي.

[34]) جامع بيان العلم وفضله: ص: 389.

- إن من الواجب العلمي والأخلاقي على كل المفكرين والباحثين في مجالات العلوم الشرعية والإنسانية والقانونية السعي الدَّؤُوب في تنمية الفكر النقدي لكل الظواهر والسلوكات لدى الشباب المسلم، وتأهيلهم للارتقاء بفكرهم نحو الإبداع الخلاّق.
- إن الاستقلالية الفكرية لا يمكن أن تظهر نتائجها إلا حينما تتحول إلى واقع عملي لدى فئات عريضة من الشباب، فتنعكس بشكل إيجابي على واقع المسلمين، من خلال استقامة السلوك الفردي والجماعي، وتحقيق التنمية، والارتقاء الأخلاقي، وملامسة الازدهار والمدنية في شتى مجالات الحياة.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء الصراط، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الألباني، صحيح وضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: 1420هـ)، نشر: مكتبة المعارف، ط: 2017.
3. أيسر فائق حسني، مدخل لدراسة الفكر الإسلامي، مجموعة محاضرات، نشر: جامعة الانبار كلية العلوم الإسلامية –رمادي قسم العقيدة والدعوة والفكر
4. إيقاظ الهمم، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، نشر دار المعارف، سنة: 2007م
5. ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، وسَمّاه: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت 739 هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط [ت 1438 هـ]، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية 1414 هـ - 1993 م (طبعة جديدة مَزيدَة ومُنقّحَة)
6. ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت 463 هـ)، المحقق: أبو الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994م.
7. ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1991م
8. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 774 هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – (1419هـ).
9. ابن منظور، لسان العرب، (محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري)، الطبعة الأولى، دار صادر – بيروت.
10. ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، عن دار الجيل، الطبعة الأولى 1411ه- /1991م.
11. ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، الطبعة: الثانية، الناشر: دار المعارف.
12. ابن بدران. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد بدران (ت ١٣٤٦1346هـ)، المحقق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية: 1401هـ
13. البخاري صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق، الجامع الصحيح المختصر، نشر: دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت (الطبعة الثالثة ، 1407 – 1987).
14. البيهقي في السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت 458 هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.
15. الترمذي الجامع الكبير (سنن الترمذي)، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت 279 هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1996 م.
16. الدارقطني، سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (ت 385هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م.
17. حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، في فكرنا المعاصر، ص: 5، دار الثقافة بالقاهرة، 1410ه - 1990م.
18. الراغب الاصفهاني، المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، طبعة المكتبة الإسلامية إستانبول، تركيا، الطبعة الثانية، (بدون تاريخ).

19. راشد شهوان، محاضرات في الثقافة الإسلامية، محمد ابو يحيى / راشد شهوان / عبد الرحمن الكيلاني / أحمد العوايشة / يوسف غيظان، العلوم الاسلامية - الفكر الإسلامي، نشر: دار المناهج.
20. السخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة السخاوي، المحقق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، سنة النشر: 1405.
21. سحر شعير، كيفَ رَبَّى النبيُّ أصحابَه على التجديدِ والإبداع"، مجلة رواحل الالكترونية، بتاريخ 2 أغسطس 2021.
22. الشاطبي، الموافقات، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت 790 هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م.
23. الشوكاني، القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد الخالق، الناشر: دار القلم – الكويت، الطبعة: الأولى، 1396.
24. مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد: (41) بعنوان: (العقل والنقل عند ابن رشد).
25. محمد رضا، كتاب المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر(تـ 1388 هـ)، نشر: مطبعة النعمان، بتاريخ: 14ديسمبر 2016.
26. عبد الرزاق في المصنف، ويليه: كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي، رواية عبد الرزاق الصنعاني [منشور بالشاملة مستقلا]، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (126 - 211 هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، توزيع المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1403 هـ - 1983م.
27. عبد العزيز بن ادريس، مجلة دعوة الحق، العدد 12، مقال: استقلال الشخصية الإنسانية في الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.
28. العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت 660هـ)، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، وصورتها دور عدة مثل: دار الكتب العلمية - بيروت، ودار أم القرى – القاهرة، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤ هـ - 1991 م.
29. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت 1332هـ ، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة.
30. محمد أبو ريدة، أمهات المسائل في الفكر الإسلامي، بحث منشور في جريدة القبس الكويتية، الجمعة 6/ 10/ 1989م.
31. محمد بحر محمد حسن، (الفكر الاسلامي، المفهوم، المصادر، الخصائص، التحديات: دراسة مقارنة)، مجلة أسيوط لبحوث الدراسات الإسلامية، المجلد 1، العدد 1 يناير 2019 م.
32. محسن عبد الحميد: تجديد الفكر الإسلامي، الطبعة:1، الناشر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تاريخ النشر31-12-1996، دولة النشر: الولايات المتحدة الأمريكية.
33. محمد الحبر يوسف، مجلة الشرق: مقال: الاستقلال الفكري / بتاريخ: 14يوليو 2015.
34. مالك بن نبي، "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، ترجمة عبد العظيم علي، دار الفكر، بدون تاريخ.
35. مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، نشر: دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة ـ بيروت.
36. المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية ق3 هـــ نشأة وخصائص، مصطفى الهروس، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1997م.
37. نادية سرور، مقدمة في الإبداع، الناشر: دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 2002/ علال خالد كبير، نقد فكر الفيلسوف ابن رشد الحفيد على ضوء الشرع والعقل والعلم، الطبعة: 1، سنة النشر: 2014.
38. الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت 807هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: 1414 هـ، 1994م.